

: الحداثة الشعرية في الجزائر

إن حال الحركة الشعرية في الجزائر ربما تختلف عما هي عليه في البلدان العربية الأخرى فلا يخفى على أحد أنها تأثرت بالجو السياسي والاجتماعي للبلاد، إذ كان الشعر في الفترة الذي ارتبط فيها بالحركة الوطنية إبان الثورة يشهد حيوية ونشاطا كبيرين لأنه يمثل أداة تبليغ تبث أصوات الكفاح والدعوة إلى الاستقلال، أما في الفترة اللاحقة أي مرحلة ما بعد الاستقلال فقد شهد الشعر ركودا رهيبا وتأخرا عن مسار الحركة الشعرية في باقي البلدان العربية.

ويعود تأخر ظهور التجربة الشعرية الجديدة في الجزائر إلى أن « الأرضية التي بسّطتها الترجمة في المشرق للشعر الحر، لم تتح للشاعر الجزائري الذي وقف من الثقافة الفرنسية موقف العداء، فلم يحتك بها إلا في وقت متأخر، وبالرغم من النداءات المبكرة التي رفعها "رمضان حمود" في العشرينات للأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، والنّهوض بالأدب العربي عن طريق الترجمة ، فإنّ طابع القطيعة كان ولا يزال يفوّض نفسه على الثقافة العربية والفرنسية في الجزائر » فبقيت بذلك التجربة الشعرية الجزائرية في تلك المرحلة تراوح مكانها وتدور في حلقة تقليد القدماء.

تعتبر قصيدة "يا رفيقي" للشاعر "أبو القاسم سعد الله" أول نص يحمل سمات التجديد، لتمثل بذلك البداية الفعلية لمرحلة الانعتاق من النموذج الشعري التقليدي والدخول في مسار التجديد الشعري، ذلك أنها حملت خصائص الشعر الحر ذلك أنها كانت «متعددة الأوزان متغيرة القوافي كما أنها تشمل مقاطع لا يمكن أن تخضع لبحر معين من البحور الخليلية المعروفة». وقد ذكر وأبو القاسم سعد الله بأنه كتب هذه القصيدة في "الأبيار يوم 15 مارس 1955 وأن البصائر نشرتها في عددها 313 "وهذا المقطع منها:

يا رفيقي

لا تلمني عن مروي

فقد اخترت طريقي!

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاحب الشكوى، عرييد الخيال

لقد شهد الشعر الجزائري في المراحل اللاحقة تطورا ملحوظا على المستوى الشكلي والمضموني؛ وذلك من خلال استلهامه لمختلف آليات وجماليات الحداثة الشعرية، على يد الكثير من الشعراء المعاصرين الذين حققوا تميزا فنيا للتجربة الشعرية وألبسوها حلة جمالية مختلفة عما كان عليه الحال، ومن أهم هؤلاء الشعراء نجد: عبد الله حمادي، عبد الله العشي، ميلود خيزار، ياسين بن عبيد، مصطفى محمد الغماري وغيرهم.

لقد عمد هؤلاء الشعراء إلى تشكيل اتجاه شعري حدائي متغير على المستوى الشكلي والمضموني وبالتحديد في رؤية للذات والواقع والعالم، فمهما بلغ الشاعر تيمة التجاوز والتخطي فإنها تبقى نسبية بالنسبة للشعر؛ لأنه لا يعرف الاستقرار ولا يقف عند أي حدود وهو ما عبر عنه عبد الله حمادي في قصيدته "الشعر":

الشعر وثب على سرج لأقمار

وطول شوق إلى استنطاق أفكار

لقد ظلت التجارب الشعرية الجزائرية المعاصرة تصنع حيزها الخاص وترسم معالمه وحدوده من خلال خلق توزيع جديد للغة لم يكن معروفا ومعهودا في اللغة الشعرية الجزائرية، وذلك كما يقول عبد الله حمادي « من أجل خلخلة البنيات الذوقية والجمالية السائدة، لأن الحداثة الإبداعية تنطوي على قلق دائم لا يعفو عليه الزمان، وعلى نوع من الهدم المستمر من الزمن دون أن يتحول إلى بنية ثابتة، إنها تنطوي على سؤال مفتوح لا تأتي السنوات بالإجابة عنه مهما حبلت بالتجارب والمعرفة، ومعنى ذلك أن الحداثة الإبداعية لا يمكن أن تنتهي ولا يمكن أن يتجاوزها الزمن فهي لا قيمة تاريخية وفي الوقت ذاته مرتبطة بالتاريخ ومقتحمة لحدوده »

لقد حاول عبد الله حمادي أن يستكنه جوهر الحداثة فقال بأنها « لا تكمن في قول المدافعين أو المقاومين لخصائصها في كونها استطاعت أن تطلق صراحها من عمود الخليل، وتتخذ التفعيلة الموحدة، أو

المختلفة كبنية خارجية، وتستهدف قضايا العصر كغاية منشودة»، بل هي رؤية شعرية متكاملة الأطراف تهدف إلى «حسم النزاع القديم، وإعادة رباط القطيعة، ومحاولة الاستفادة المنصفة من كلا التجربتين».

فالحداثة تفتح على كل الامكانيات وتتصالح مع كل الحركات، وهي ليست هدمًا للموروث ولا انفصاما عنه، وديوان "البرزخ والسكين" لعبد الله حمادي يحمل نصوصا شعرية منبثقة من أعماق التراث، ولكن بوعي حدائي كبير ومن أهم القصائد في هذا الديوان نجد "البرزخ والسكين"، "يا امرأة من ورق التوت"، "لا، يا سيدة الإفك"، "الشوفار"، و "جوهرة الماء"، كل هذه القصائد يعود فيها الشاعر إلى التراث الاسلامي، والفلسفة الصوفية.

تعتبر خاصية الغموض من بين أهم الخصائص الشعرية الموائمة لطبيعة الحداثة الشعرية، باعتباره «طاقة الإبداع في النص التي تفتح مداه على عوامل لا نهائية من الدلالات الإيحائية، التي تلقي ظلالها الكثيفة، أو تقربنا عبر قراءة عنيدة من مدلولات تجربة لا نأتيها أو نبلغها في يسر» فالغموض مظهر من مظاهر الحداثة، ويطلق عليه عبد الله حمادي اسم اللغة الضوئية وهي لغة خاصة تبتعد عن الوضوح المنطقي؛ لأن القصيدة لا تمثل زجاجا شفافا يرى القارئ مضمونها، وإنما تجذب الانتباه إلى نفسها بوصفها صنعا متميزا في اللغة وباللغة.

بما أن الغموض قد أصبح السمة العامة لكثير من الشعراء المعاصرين الجزائريين، فإنهم عمدوا إلى استخدام غريب اللغة، والرموز والأساطير والألغاز لأجل التعبير عن المعاني المزدحمة في صدورهم، ويعترف عمر أزراج بولعه بالغموض فيقول معترفا:

إن تفهموني، تبصروا منا جسورا

إن الغموض حديقتي

والسطح كرماتهم جميعا

شيء يمضي هكذا...

فكوا الرموز تروا وضوحى صارخا

من مظاهر الحداثة الشعرية حداثة اللغة فالشاعر المعاصر يخوض غمار الحياة العادية اليومية ومشكلاتها، ولذلك أصبحت مفرداته وصوره تتسع لكل الموضوعات والمضامين، ومن مظاهر التغيير في

المعجم اللغوي والشعري الجزائري استخدام العامية أو ألفاظا من أصل أجنبي، وكمثال عن ذلك نأخذ مقطعا من قصيدة لأحمد حمدي الذي يكثر من استخدام كلمات ذات أصل أجنبي:

وخرائط حزن وفاتورة الخطوات الجريئة ...

... لا أعرف سر الموت مجانا

ولا هذا الديالكتيك ...

... في شرعية النظام

في إيديولوجيات المعارضين.

تتأسس الحداثة الشعرية وتتكا على خاصيتي الكشف والتجاوز، ويذهب عبد الله حمادي إلى أن الشعر « لا يتكلم عن العالم وتوضيحه لك، وإنما المنتظر منه هو صوغ تجربة مع العالم تعتمد صلة حميمة بمكوناته تسبق كل فكرة عنه، لأن وظيفته الجوهرية هي الإيحاء وليس المطابقة، إنه السمو بتعبيرية الأشياء والسعي إلى إحداث عملية تشويش مقصودة في قاموس اللغة وهو في هذا تجسيد لإرادة الشاعر في التغيير»، من خلال النفاذ إلى الأعماق وتجاوز كل ما هو جلي وظاهر، وقد اتخذ ميلود خيزار من تيمة الموت بوابة للكشف عن عالم الروح عبر الخروج من عالم الجسد؛ فللجسد فناء وللروح بقاء يقول:

كان على الشاعر أن يموت

كي يستعيد الريح

معطف الأحلام

من كتف الشبح المنحوت

من حجر المخيال

إن المتأمل للشعر الجزائري المعاصر يجد ميلا نحو استخدام الرموز بأنواعها تاريخية /أسطورية/ اجتماعية/ سياسية/ دينية/ صوفية، غير أن الرمز الأسطوري كان الأوفر حظا في المتن الشعري الجزائري؛ لأنها كانت وما زالت تعتبر مصدر إلهام لكل الشعراء على حد سواء. وفي النص الشعري الآتي نجد الشاعر نور الدين درويش يوظف أسطورة العنقاء ليعكس القمع السياسي:

وطن لهذا الجرح، أتعبني رحيل الأصدقاء

أنا صرخة ،،

جرح تقادم عهده،،

تاريخ شعب لم يمت

أمل توسده المدينة منزمان

الحب عل مني التجديد سيدي

أنيكما العنقاء أولد كل عيد

إني هنا

ماذا تريد ؟

لقد اتجه شعراء الحداثة إلى تقنية التناص فاحتل مساحة كبيرة على خارطة الإبداع، يقول عثمان

لوصيف في قصيدته "قفأ نبك":

صاحبي!

هلم .. إذن

وقفأ نبك مثل امرئ القيس

والجاهليين

نبك على دارسات الدمن

فالحبيبة قد أوغلت

في سراب الفيافي

ولم يبق إلا الأثافي

في هذا النص نجد تناسبا مع النص الشعري القديم سواء من ناحية اللفظ والمعنى، وفيه استدعاء مباشر لشخصية أدبية تراثية هي شخصية امرؤ القيس، وكذلك الجاهليين، واستدعاء ثاني هو استدعاء خطاب من خلال الألفاظ التي اقتبست من النص الشعري القديم.

المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- 1 محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية.
- 2 صالح خرفي : الشعر الجزائري.
- 3 عبد الله حمادي: الشعرية العربية بين الإلتباع والابتداع.
- 4 عبد الله حمادي: لوازم الحداثة والمعاصرة للقصيدة العمودية.